

الروابط الثقافية والعلمية بين وهران والعدوة الأندلسية

عبد القادر بوباية*

مقدمة:

يعود الفضل في بناء مدينة وهران إلى مجموعة من البحارة الأندلسيين بإجماع الجغرافيين العرب، ومنهم أبو عبيد البكري الذي يقول: "وبنى مدينة وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع نفزة وبني مسقن وهم من أزداجة، وكانوا أصحاب القرشي سنة 290هـ؛ فاستوطنوها سبعة أعوام"¹.
وقد قال مؤلف كتاب الإستبصار (ق 6هـ): "بناها جماعة من الأندلسيين البحريين بسبب المرسى، بالاتفاق مع قبائل البربر المجاورين لها، فسكنوها مع قبائل البربر يقال لهم بني مسكين نحو سبعة أعوام"². وبداية من ذلك التاريخ صار لمدينة وهران علاقات متينة مع العدوة الأندلسية، إذ كانت بحكم موقعها الجغرافي "تقابل مدينة المرية من ساحل بحر الأندلس"، وقربها منها، إذ "سعة البحر بينهما مجريان" توفر الجزء الأعظم من المواد الغذائية التي

* قسم التاريخ- جامعة وهران السانية

- 1- أبو عبيد البكري- المسالك والممالك- تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري- بيت الحكمة - الدار العربية للكتاب قرطاج-1992م. ج2 ص. 738.
- 2- مجهول- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار- نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد- دار النشر المغربية- الدار البيضاء- 1985-ص. 134.

يحتاجها سكان سواحل العدو الأندلسية "ومنها أكثر ميرة ساحل الأندلس"، كما كان لمينائها دور هام في الاتصالات والمبادلات بين ضفتي البحر المتوسط، نظرا لأن "لها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئا، ولها على ميلين منها المرسى الكبير، وبه ترسو المراكب الكبار والسفن السفرية، وهذا المرسى يستر من الريح وليس له مثل في مراسي حائط البحر من بلاد البربر".³ و بحكم الموقع الهام الذي احتلته مدينة وهران وقربها من سواحل العدو الأندلسية، ودورها الهام في عملية الربط بين المغرب والأندلس، لعبت وهران دورا بارزا في الاتصال المستمر بين المسلمين القاطنين في ضفتي البحر المتوسط، وتجلت ذلك بصفة خاصة في تمتين الروابط العلمية والثقافية بين مسلمي العدوتين الأندلسية والمغربية.

وسنعمل من خلال هذه المقالة المتواضعة على إبراز الروابط العلمية والثقافية التي كانت بين مدينة وهران وبلاد الأندلس، وذلك من خلال رصد الاتصالات والمبادلات التي كانت بين علماء المنطقتين، وذكر علماء وهران الذي زاروا الأندلس أو استقروا بها، وعلماء هذه الأخيرة الذين ارتحلوا إلى وهران وأقاموا بها، أو عبروا منها إلى مدن المغرب والمشرق الإسلاميين.

علماء من وهران زاروا أو استقروا بالعدوة الأندلسية:

1- يحيى بن عبد الله بن محمد المكنى بأبي بكر المعروف بالجماتي الوهراني المولود بتاريخ 361هـ/971م، والذي استقر بإشبيلية ودرس بها عن أبي عمر بن حفص الهوزني، وبعد أن أكمل دراسته، بدأ يدرس مادة الحديث، ومن تلامذته عمر بن

³- أبو عبد الله الإدريسي- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس- من كتاب "نزهة المشتاق واختراق الآفاق- تحقيق إسماعيل العربي- د.م.ج.- الجزائر- 1983- ص. 153.

الحسن الهوزني ابن الأول، وبقي هناك إلى أن توفي سنة 430 هـ/1039م⁴.

2- أحمد بن أبي عون الوهراني: المتوفى سنة 341هـ/952م وهو قاض من علماء الفقه المالكي، ولد ونشأ وتعلم في وهران التي ولي قضاءها، ومنها رحل إلى الأندلس، واستقر في قرطبة وتوفي بها⁵. ويؤكد ذلك ابن الأبار الذي يقول إن: "أحمد بن أبي عون من أهل وهران وقاضياها"، ويضيف أنه "قدم قرطبة على عهد عبد الرحمن الناصر في وجوه أهل بلده سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة"⁶.

3- عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن مسافر الهمداني المكنى بأبي القاسم والمعروف بابن الخراز، زاد عياض "بن مسافر المعروف بالتجاني وبابن الخراز، وهو أشهر هؤلاء العلماء"⁷. ولد سنة 338هـ/949م في وهران على الأرجح حسب ما أورده ابن بشكوال والضبي اللذان يضيفان أنه قدم الأندلس واستقر في بجاية، ولا يشيران إلى دراسته الأولى، ولكن ابن بشكوال يذكر أنه سافر إلى المشرق الإسلامي من أجل إكمال دراسته، وأورد أسماء جملة من العلماء المشاركة الذين تتلمذ على أيديهم، ومن بينهم عمر بن شبيب المرزوي وتمام بن محمد القروي، ثم درس بالعراق على أبي بكر أحمد بن جعفر بن مالك بن محمد القطيعي وغيره من علماء العراق.

⁴ أبو القاسم درارجة- العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس- ص. ص. 167-188-مجلة بحوث-جامعة الجزائر-العدد 2/1994م- ص. 182.

⁵ ابن الأبار الفضاعي-التكملة لكتاب الصلة- تحقيق عبد السلام الهراس- دار الفكر- بيروت- 1415هـ-1995م-ج1ص111/عادل نويهض-معجم أعلام الجزائر-مؤسسة نويهض الثقافية- بيروت-ط3- 1403هـ-1983م- ص.347/عمار هلال-العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية... ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر-1995م- ص. 13.

⁶ ابن الأبار-التكملة- ج1-ص. 111.

⁷ القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي-ترتيب المدارك وتقريب المسالك-ضبط محمد سالم هاشم- دار الكتب العلمية-بيروت-ط1-1418هـ/1998م-ج2 ص. 272.

كان عبد الرحمن بن عبد الله يمتحن التدريس والتجارة معا؛ وكان يتردد على قرطبة أين يبيع بضاعته، ويلقي بها دروسه، وكان يقوم برحلات أخرى إلى المرية المجاورة ويقوم بها أياما، ومن تلاميذه أبو عمر بن عبد البر الذي أشاد به في كتابه، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول من عام 400هـ/جويلية 1009م⁸.

ولد عبد الرحمن ونشأ وتعلم بوهرا، ثم رحل في طلب العلم؛ فأخذ من علماء تونس ومصر والحجاز والعراق وخراسان والجل ونيسابور، ودامت رحلته عشرين سنة، ثم عاد إلى بلده ومنها دخل الأندلس، وفيها روى عنه الإمامان أبو عبد الله بن عبد البر (463/368 هـ) وعلي بن محمد بن سعيد بن حزم (456/384 هـ)⁹.

قال الحميدي: رحل إلى العراق وغيرها، وسمع أبا بكر أحمد بن جعفر بن مالك بن حمدان القطيعي وأبا إسحاق البلخي، وأبا بكر محمد بن صالح الأبهري، وأبا العباس تميم بن محمد بن أحمد صاحب عيسى بن مسكين وغيرهم، وروى عنه الإمامان الحافظان أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر وأبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم¹⁰، وزاد الضبي فقال: "...يعرف بابن الخراز، وهو البجاني،"¹¹.

ويقول ياقوت الحموي وهو يتكلم عن مدينة وهران: "وينسب إليها أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمداني الوهراني، ويروي عن أبي بكر أحمد بن جعفر القطيعي،"¹².

⁸ - أبو العباس أحمد المقرئ - نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت - بدون تاريخ - ج 5 - ص 172.

⁹ - ياقوت الحموي - معجم البلدان - دار بيروت للطباعة والنشر - دار صادر - بيروت - 1404 هـ - 1984 م - ج 5، ص 386.

¹⁰ - أبو محمد بن فتوح الأزدي الحميدي - جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس - تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1417 هـ / 1997 م - ص 243.

¹¹ - أحمد ابن عميرة الضبي - بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس - تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1417 هـ / 1997 م - ص 319.

¹² - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج 5 - ص 386.

ويعطينا القاضي عياض تفاصيل ضافية عن الرحلة العلمية التي قام بها عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد فيقول إنه: "رحل في طلب العلم؛ فأخذ عن علماء تونس ومصر والحجاز والعراق وخراسان والجل ونيسابور وبلخ، ودامت رحلته هذه ما يربو على عشرين سنة تتلمذ فيها على يد أبي بكر القطيعي (273-368هـ) وأبي بكر الأبهري (289-375هـ) ثم عاد ودخل الأندلس؛ فروى عنه الإمام أبو عبد الله بن عبد البر (368-463هـ) وابن حزم (384-456هـ).

ثم أضاف نقلا عن ابن غلبون الذي قال إنه: "كان صالحا، وله رحلة قديمة لقي فيها الناس وحج ورحل إلى العراق وغيرها، ولقي الأبهري وروى عنه كتبه ولقي بها جماعة سواه، ولقي بمصر والبصرة وغيرها، وقال غيره لم يكن فيما أدركنا أوثق منه ولا أروع ولا أحسن تمسكا منه بالسنة، وسمع منه جماعة من الناس بالأندلس، كحاتم الطرابلسي ومحمد بن غلبون الخولاني وغيرهم، وله مشائخ كثيرة سمع منهم بإفريقية ومصر والحجاز والعراق وخراسان والجل، ورحل لابن مرد ولابن شبويه فسمع منهما صحيح البخاري، ورحل إلى نيسابور وبلخ وتفقه بالأبهري ودرس عليه كتبه سنين مع أصحابه، ولقي بالبصرة فقهاء المالكية أبا يعلى البصري وأبا عبد الله بن عطية وذاكرهم، وسمع من وابن مالك وابن السقا وأبي الفضل العطار وأبي الحسن ابن لؤلؤ وغيرهم من البغداديين، وسمع بالقيروان من أبي العباس وابن أبي العرب، وأقام في رحلته نحو عشرين عاما رحمه الله¹³.

4- أبو محمد عبد الله بن يوسف بن طلحة بن عمرو الوهراني المتوفى سنة 429 هـ/1038م، وهو فقيه مالكي عالم بالحديث وله اهتمامات بالطب والحساب، وقد ولد ونشأ وتعلم بوهران.

قال عنه أحد معاصريه: "قدم الأندلس تاجرا سنة 429هـ، وسكن إشبيلية وقت السيل الكبير، وكان من الثقات، وله رواية واسعة عن

¹³ - القاضي عياض اليعصبي- ترتيب المدارك - ص. 272.

شيوخ إفريقية مثل محمد بن أبي زيد القيرواني ونظرائه، وكان له علم بالحساب والطب وكان نافذاً فيها، حدث عنه ابن خزرج، وقال لنا إنه قارب الثمانين"¹⁴.

5- أبو بكر يحيى بن عبد الله بن محمد القرشي الجمحي الوهراني المتوفى سنة 431 هـ/1039م، وكان حافظاً عارفاً بالحديث، وهو من العلماء من مدينة وهران، وقد تعلم بموطنه وبالأندلس.

قال ابن خزرج: "كان شيخنا هذا متصرفاً في العلوم، قوي الحفظ حسن الفهم، وكان علم الحديث أغلب عليه"¹⁵.

6- علي بن قاسم الوهراني الشهير بالحداد: وكان بقاء الحياة في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، وهو من كبار فقهاء المالكية في وقته، وينتسب إلى أهل وهران وبها نشأ وتعلم، وكان بالأندلس في أواخر العهد الإسلامي بها¹⁶.

علماء أندلسيين قدموا إلى وهران فاستقروا بها أو عبروا منها إلى غيرها:

1- أبو العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان: وهو أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان بن عبد الله بن عبدوس بن ذكوان الأموي، ويكنى أبا العباس، وأصلهم من جيان، أما ابن حيان فيقول: "إن أصلهم من برابر فحص البلوط"¹⁷، وكان أبو العباس أكمل رجالات الأندلس وأتمهم عقلاً¹⁸.

قلده المنصور محمد بن أبي عامر قضاء الجماعة بعهد الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله يوم الأربعاء الرابع عشر من المحرم سنة 392 هـ-1002م، وتقلد بعدها خطة الصلاة سنة 394 هـ-1004م، ولم

¹⁴ - أبو القاسم خلف ابن بشكوال - كتاب الصلاة - نشر وتحقيق السيد عزت العطار الحسيني - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط 1 - 1414 هـ - 1994 م - ج 1 ص. 298.

¹⁵ - أنظر نويهض - معجم أعلام الجزائر - ص. 348.

¹⁶ - أنظر عادل نويهض - ص 349-350/هلال - العلماء الجزائريون - ص. 33.

¹⁷ - القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص. 253.

¹⁸ - نفسه - ج 2 ص. 253.

يزل يتقلدهما إلى أن صرف عنهما يوم الخميس لثلاث خلون من ذي الحجة سنة 394هـ، ثم أعيد ابن ذكوان إلى قضاء قرطبة والصلاة معا؛ فلم يزل يتولاهما معا إلى أن صرف عنهما يوم الخميس لخمس خلون من جمادى الأولى سنة 401هـ-1010م.¹⁹ إضافة إلى اضطراره بمهمة قضاء الجماعة بقرطبة، كان أبو العباس بن ذكوان "من جملة أصحاب المنصور بن أبي عامر وخواصه، ومحلّه منه فوق محلّ الوزراء، يفاوضه في تدبير سائر شأنه، ولم يتخلف عنه في غزوة من غزواته، ولا فارقه في ظعن ولا إقامة، وكذلك كان حاله مع ولديه المظفر والمأمون بعده، قد تيمنوا رأيه وعرفوا النجاح في مشورته.

جمع له المنصور القضاء والصلاة والخطبة إلى أن هلك ثم أقرّه عبد الملك على ذلك إلى أن فسد ما بين القاضي وبين وزير الدولة عيسى بن سعيد بسبب فسح عقد ضيعة اشترأها عيسى من ولد ابن السليم السفية، ففضى ابن ذكوان بردها إلى السفية وفسح بيعه، فالتحمت بينهما العداوة، واتهم أبو العباس بالقدح في الملك، فصرفه عبد الملك المظفر عن القضاء والصلاة، ثم أعاده إلى منصبه بعد تسعة أشهر من عزله.²⁰

كان أبو العباس بن ذكوان ضابطا للحق، صليبا فيه، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان الناس والخصوم يلتزمون في مجلسه من الوقار وعض الصوت الغاية.²¹

توفي أبو العباس بن ذكوان قاضي الجماعة سنة 413هـ-1023م بعد محنة مرّ بها خلال الفتنة القائمة بالأندلس، وكان مولده سنة 342هـ-953م.²²

¹⁹- ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 37/ الضبي - بغية الملتمس - ص. 160.

²⁰- ابن الحسن النباهي الأندلسي - تاريخ قضاة الأندلس أو المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا - تحقيق مريم قاسم الطويل - دار الكتب العلمية - بيروت - 1415هـ-1995م - ص 113/ القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص. 254-255.

²¹- نفسه - ج 2 ص. 255.

²²- ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 38 / الضبي - بغية الملتمس - ص. 160.

قال القاضي عياض : "ولما قتل واضح الصقلي الحاجب المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار، وبايع الناس لهشام المؤيد، وقام واضح بأمره وحجابته، والبرابرة مع سليمان المستعين يفانتون قرطبة ويرومون دخولها، وكان هوى بني ذكوان في جماعة الناس إلى السلم وصلح البرابرة وصاحبهم، فيقال إن ابن ذكوان نصح لهشام في واضح فبلغت واضحا؛ فسعى على بني ذكوان بالتهمة في الميل إلى البرابرة، وأن الناس تبع لما يشيرون به، فنفذ أمر هشام بإخراجهم عن الأندلس ونفيهم إلى العدو؛ فأخرج أبو العباس وأخوه أبو حاتم وأخوهما الأديب أبو عمر، وذلك في سنة 401هـ/1010م؛ فحملوا إلى المريّة، وأجيزوا لحينهم البحر في حال شدة ارتجاجه؛ وخلفوا دوابهم وثيابهم، وخرجوا إلى وهران...ولما قتل الجند واضحا حسن الرأي فيهم فوجه فيهم، وعادوا إلى وطنهم بالأندلس²³.

عندما قتل واضح استرجع إلى قرطبة، ولم يقبل خطة القضاء بوجه، وكان السلطان لا يقطع أمرا دونه، وصحبته الرياسة بقية مدته إلى أن مات على تلك الحال؛ فدفن صلاة العصر من يوم الأحد لتسع بقين من رجب سنة ثلاث عشرة وأربعمائة²⁴.

قالت هيلينا دي فيليبي: ولد في جمادى الآخرة سنة 342هـ/953م، وتم نفي بني ذكوان إلى العدو في عام 401هـ/أي من 15-08-1010 إلى 3 أوت 1011م²⁵.

على الرغم من قصر المدة التي مكث فيها آل ذكوان بمدينة وهران، فإنه من المحتمل جدا أن يستغل طلبة العلم وجود أبي العباس بن ذكوان وإخوته بين ظهرانيم لينهلوا من علمهم طيلة المدة التي بقوها في وهران.

²³ - القاضي عياض- مج 2 ص.ص. 255-256.

²⁴ - ابن سعيد الغرناطي الأندلسي- المغرب في حلى المغرب-تحقي خليل المنصور-دار الكتب العلمية-بيروت-ط1-1417هـ-1997م-ج1 ص. 148.

²⁵ -Helena de Felipe- Identidad et onomastica de los beréberes de Al-andalus -C.S.I.C-Madrid- 1997- p.p. 110-111.

2- محمد بن عبد الله بن مروان بن جبل الهمداني: وهو فقيه قاض من أهل وهران، نشأ بتلمسان، وأصله من الأندلس، من مدينة شلوبينية، وهي قرية مسكونة على ضفة البحر، بينها وبين المنكب عشرة أميال²⁶، ولي قضاء تلمسان ثم مراکش بين عامي 584-585هـ ثم قضاء إشبيلية سنة 592هـ، ثم عاد ثانية إلى مراکش²⁷. استقضى بتلمسان وقتاً، ثم قدمه المنصور من بني عبد المؤمن في حركته المشرقية الثانية-وهي حركة قفصة سنة 582هـ-إلى قضاء الجماعة بعد صرف أبي جعفر بن مضاء عن الخطة؛ فتقلده محمود السيرة، واتصف بالعدل والنزاهة والتوعدة، وصرف عن القضاء سنة 592هـ بمدينة إشبيلية، ثم أعاده الناصر بن المنصور إلى خطة القضاء في جمادى الأولى سنة 596هـ. استمر ابن مروان ناهضاً بأعباء الخطة، شديد الهيبة بصيراً بالأحكام، شديد النظر في الفصل بين الخصوم²⁸. قال يحيى بن خلدون: "أبو عبد الله... وهراني الأصل، نشأ بتلمسان، شلوباني الأول، روى عن أبي موسى عيسى بن عمران، وروى عنه أبو جعفر بن ثعبان. وكان فقيهاً مستبحراً في حفظ المسائل، ماهراً في النظر، حسن الخط، سري الهممة، ولي قضاء تلمسان ثم استقدمه المنصور لقضاء الجماعة بمراكش عند حركته إلى قفصة؛ فكان بها حميد السير، عادلاً في الأحكام، قيل لم يجلد أحداً بسوط أيام قضائه مع كونه شديد الهيبة، بصيراً بالأحكام، حظياً عند المنصور، توفي

²⁶- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري- صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار- نشر إلفي بروفنسال- دار الجيل- بيروت- ط2- 1408هـ-1988م- ص. 111.

²⁷- ابن الأبار - التكملة - ج2-ص. 161

²⁸- أبو عبد الله بن عبد الملك المراكشي- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة-تحقيق محمد بن شريفة- مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية-الرباط-1984م- السفر الثامن-ق2-ص. 386.

ليلة الأحد تاسع جمادى الأولى سنة إحدى وستمئة، واحتفل الناس في جنازته²⁹.

قال ابن سعيد الأندلسي في كتاب الغصون اليبانة: ذكره التاج بن حمويه الدمشقي في رحلته المغربية، وأخبر أنه من المريّة أصلاً، وكان والده من الأجناد، تقدم وساد وولي مدينة وهران، وبها ولد أبو عبد الله، ونشأ بتلمسان مجداً في الفقه والأدب، ومال لعلم الظاهر وأكثر من مطالعة كتب ابن حزم فاشتهر بذلك، وكان ممن له مشاركة في صناعاتي النظم والنثر.³⁰

لزم أبا جعفر بن مضاء قاض القضاة مدة مرض ابن مضاء في سفرة المنصور إلى إفريقية سنة ثلاث وثمانين وخمسائة؛ فاشتغل ابن مروان بالحكم بين الناس؛ فظهر منه من حسن الخلق والسياسة ما اشتهر به اسمه ونسي معه ابن مضاء، فما استقل ابن مضاء من مرضه إلا وقد حاك أي أخذ في قلب المنصور أن يجعله قاضي الجماعة فكان ذلك، وصار ابن مضاء إذا رآه والناس مقبلون عليه أنشد:

وما يستوي الثوبان ثوب به البلى وثوب بأيدي البائعين جديد
ولم يزل أبو عبد الله قاضياً للمنصور إلى أن كانت سنة اثنتين
وتسعين وخمسائة؛ فوقع بينه وبين أبي القاسم بن بقي الفقيه
المحدث كلام أظهر فيه ابن مروان الاقتدار عليه، فأنشده ابن بقي:

الدهر لا يبقى على حالة لكنه يقبل أو يدبر
فإن تلقاك بمكروهه فاصبر فإن الدهر لا يصبر
واتفق أن سعى في إثر ذلك بابن مروان، ونسب له تقصير في
صدقات خرجت على يده؛ فعزله المنصور وولى على قضاء

²⁹- أنظر التكملة ج 2 ص 161/ ابن سعيد الأندلسي- الغصون اليبانة في محاسن شعراء المائة السابعة- تحقيق إبراهيم الأبياري- دار المعارف- القاهرة- ط4-1990م- ص ص 29-35/ الذيل والتكملة- 1/8 ص 339/ أبو زكرياء يحيى بن خلدون- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- تحقيق عبد الحميد حاجيات- المكتبة الوطنية- الجزائر- 1400 هـ- 1980م- ج 1 ص 113

³⁰- ابن سعيد الأندلسي- الغصون اليبانة- ص.ص. 29-33

الجماعة ابن بَقِيّ المذكور؛ فلقبه ابن مروان في إثر ذلك، وكان مفاكها حسن الخلق طيب النفس؛ فقال له: أفترى؟ لقد أقبل وأدبر، ونحن نصبر كما صبرت؛ فاستحي ابن بَقِيّ؛ فلم يجاوبه بحرف.

ثم لما ولي الناصر، وهو أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الناصر لدين الله (595-610هـ) رده إلى قضاء الجماعة؛ فلم يزل عليه إلى أن مات في سنة إحدى وستمئة³¹.

3- أبو عمران موسى بن محمد بن مروان الهمداني: من مدينة تلمسان ولكنه وهراني الأصل حديثاً، وقد انتقل سلفه من مراكش، وأصله من شلوبينية من كورة البيرة، وقد أقام مع أبيه أبو عمران بن مروان وقتاً، ونشأ في حجر الخلافة في مراكش لاختصاص أبيه بالموحدين، فقرأ بها وتأدب، وطلب العلم واعتنى.

تفقه على يدي أبيه وروى عنه كما أخذ العلم عن غيره، واستقضى بمالقة ثم بغرناطة؛ فلم تطل مدة استقضائه بها حيث أتته منيته في شعبان سنة ثمان وستمئة، وكان الحفل في جنازته عظيماً حضره الوالي بغرناطة وشهد جنازته السلطان فمن دونه وذلك في شعبان سنة ثمان وستمئة³².

5- أبو محمد عبد الله بن محمد بن جبل الهمداني- من أهل وهران وأصله من الأندلس، من مدينة شلوبينية.

كان فقيها خطيباً، ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة، وكانت وفاته بمراكش في مستهل ربيع الآخر سنة 557هـ³³.

6- القلصادي وهو أبو الحسن علي بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي، وينسب إلى بلدة قلصادة المتصلة

³¹- ابن سعيد الأندلسي-الغصون البانعة- ص.ص. 29-33

³²- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير- كتاب صلة الصلة- تحقيق عبدالسلام الهراس والشيخ سعيد أعراب- منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية- 1413هـ-1993م- ق3 ص58/ بغية الرواد- ج1 ص. 113.

³³- أنظر التكملة- ج2 ص304/ عبد الواحد المراكشي- المعجب في تلخيص أخبار المغرب- تحقي محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي- دار الكتاب- الدار البيضاء- ط7-1978م- ص. 293-382-445.

بتطيلة الواقعة شرقي غرناطة، وكان مولده بمدينة بسطة الواقعة في شمال شرق غرناطة سنة 815هـ أو قبلها³⁴، وتوفي سنة 891هـ/1486م بمدينة باجة التونسية³⁵.

وفي سنة 840هـ/1436م بدأ رحلة علمية جاب خلالها أقطار المغرب والمشرق، وكانت بدايتها مدينة وهران، وفي ذلك يقول القلصادي "فحللنا بوهران وأقمنا بها أياما في سرور وأمان" ثم سافر من جديد إليها بعدما مكث ثماني سنوات في مدينة تلمسان، ويؤكد القلصادي ذلك فيقول: "فقدت وهران وذلك عام ثمانية وأربعين وثمانمائة هـ/1444م... وأقمت فيها برهة من الزمان مع عدة من الأحاباب والإخوان"، ويذكر في سياق ذلك عددا من أعلام وهران الذين التقى بهم، ومنهم إمام الجامع الأعظم أبو عثمان سعد الشلوني الذي هاجر من قندية بأرض شاطبة الواقعة شرقي قرطبة، واستقر بمدينة وهران، ومنهم الشيخ إبراهيم بن محمد بن علي التازي نسبة إلى مدينة تازا المغربية صاحب التأليف في الفقه والأصول والحديث، ومنهم الفقيه يحيى الهيني، ومنهم الشيخ الفقيه أبو الحسن علي بن قاسم الشهير بالحداد، ومنهم أبو الربيع سليمان الحميدي، وهو من كبار أهل العلم والفضل بوهران، وغادر المدينة في نفس السنة³⁶.

ومن المؤكد أن الرحلة التي قام بها القلصادي إلى مدينة وهران، وعلى الرغم من قصرها، كانت ذات فوائد جمة على الطرفين، فقد أفاد العالم الأندلسي من علمه الغزير طلبة وهران وبخاصة خلال زيارته لإمام الجامع الأعظم، كما استفاد هو بلا شك من علم علمائها الذين جالسهم، وتناظر معهم في شتى العلوم والمعارف.

بعد استعراضنا لهذه العينة من العلماء الذين هاجروا من وهران واستقروا في بلاد الأندلس، وأولئك الذين تركوا العدو الأندلسية

³⁴- أبو الحسن علي القلصادي- رحلة القلصادي- دراسة وتحقيق محمد أبو الأجنان- الشركة التونسية للتوزيع-تونس-ط2- 1406هـ-1985م-ص.ص. 30-31.

³⁵- نفسه-ص. 52.

³⁶- نفسه-ص.ص. 110-112.

واستقروا في مدينة وهران مؤقتا أو بصفة دائمة يتبادر إلى الأذهان سؤال متعلق بالدوافع والأسباب التي جعلت هؤلاء العلماء يقومون بعملهم هذا.

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي منا التمعن في تواريخ هجرات هؤلاء العلماء، وإذا كان علماء وهران قد انتقلوا في أغليبتهم إلى الأندلس خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين)؛ فإن علماء الأندلس قد انتقلوا إلى بلاد المغرب عامة ومدينة وهران خاصة بداية من القرن الخامس الهجري.

فما هي الدوافع الرئيسية لهجرة العلماء المغاربة إلى العدوة الأندلسية:

يجمع المؤرخون والدارسون³⁷ على أن الأندلس بلغت في عهد الخلافة ذروة التقدم والازدهار في جميع المجالات، وبخاصة في المجال العلمي والفكري حيث اجتمع في حواضرها الكبرى عدد كبير من الكفاءات من العلماء والدارسين والراغبين في العلم، وقصدها العلماء وطلاب العلم من المشرق الذي ضاق بأهل العلم والمعرفة، ومن المغرب نظرا للظروف التي كان يمر بها خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، ولم يتردد حكام قرطبة من جانبهم في مباركة هذا النشاط العلمي حيث سعوا إلى توفير الأمن والاستقرار لهؤلاء الوافدين فأحاطوهم برعايتهم وغمرتهم بعطايهم.

³⁷ - ابن الخطيب- أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام-تحقيق إلفي بروفنسال-دار المكشوف-بيروت-1956م- ص 38/ أحمد مختار العبادي- في التاريخ العباسي والأندلسي- دار النهضة العربية- بيروت- بدون تاريخ- ص414/ السيد عبد العزيز سالم- في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس- مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية- 1985- ص. 379.

كان حكام قرطبة مستنيرين يقدرون العلم والمشتغلين به³⁸؛ فمن ذلك أن الحكم المستنصر بالله كان "جامعا للعلوم، محبا لها، مكرما لأهلها"، ولم يكتف بذلك بل "جمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار واشترائه لها بأغلى الأثمان"³⁹.

ولم يخرج المنصور بن أبي عامر عن هذه القاعدة؛ فكان هو الآخر كما يقول عنه الضبي: "محبا للعلم، مؤثرا للأدب، مفرطا في إكرام من ينسب إليهما، ويفد عليه متوسلا بهما"، وبالإضافة إلى هذا كله، كان له "مجلس معروف في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرتة ما كان مقيما بقرطبة"⁴⁰. بفضل السياسة الحكيمة التي انتهجها حكام قرطبة، والمتمثلة في إكرام العلماء وإحاطتهم برعايتهم، تقدمت العلوم تقدما ملموسا، وبخاصة في عهد الخلافة، واشتغل كثير من الأندلسيين في مجالات علمية وفكرية متنوعة، ونبغوا في الكثير من هذه العلوم⁴¹، وهو الأمر الذي انعكس إيجابا على مركز الأندلس العلمي حيث أصبحت هذه البلاد قبلة للعلماء وطلاب العلم.

واستمر نفس الوضع في عهد ملوك الطوائف الذين تنافسوا فيما بينهم لتوفير أحسن الشروط لإقامة العلماء، وبذلك توافد هؤلاء من مختلف الأصقاع على الممالك التي توفر لهم الأمن والعيش الرغيد⁴².

³⁸ - جاسم بن محمد القاسمي-تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس-مؤسسة شباب الجامعة-الإسكندرية 1999- ص. 101.

³⁹ - الحميدي- جذوة المقتبس- ص. 19.

⁴⁰ - نفسه - ص. 70.

⁴¹ - السيد عبد العزيز سالم- في تاريخ و حضارة الإسلام في الأندلس-ص.ص. 283-

284.

⁴² - عبد القادر بوباية- البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري (11م)- أطروحة دكتوراه دولة غير منشورة- قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران-

1423هـ-2002م- ص.ص. 477-478.

ونظرا للظروف التي كان يمر بها المغرب، والتي يميزها الصراع الفاطمي الأموي من جهة، والصراع بين القبائل البربرية من جهة أخرى اضطرّ الكثير من العلماء وطلاب العلم إلى اجتياز المضيق، والاستقرار بالعدوة الأندلسية.

هذه بإيجاز شديد دوافع هجرة العلماء المغاربة إلى الأندلس، فما هي أسباب انتقال علماء هذه الأخيرة إلى بلاد المغرب وبخاصة إلى مدينة وهران؟

يمكن تفسير الهجرة التي قام بها علماء الأندلس إلى مختلف البلاد الإسلامية في المغرب والمشرق إلى تدهور الأوضاع في العدوة الأندلسية، وبخاصة بداية من القرن السادس الهجري بسبب تغلب النصاري على كثير من معاقل المسلمين بداية من مدينة طليطلة التي استولى عليها ألفونسو السادس سنة 487هـ/1085م وقد ساعده على ذلك الانقسام والتنافر الذي مسّ المسلمين بعد قيام فتنة القرن الخامس الهجري (11م)، والذي تجلّى في قيام أكثر من عشرين مملكة أو إمارة متحاربة فيما بينها، ومتحالفة ضد بعضها البعض مع النصاري الذين استغلوا الفرصة من أجل استرجاع ما أمكنهم من أراضي المسلمين⁴³، وعلى الرغم من تدخل المرابطين ثم الموحيدين وخلفائهم من بني مرين إلا أن عملية الاسترداد ستجعل كثيرا من علماء الأندلس يهاجرون بلادهم، ويستقرون في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية التي فتحت ذراعيها لتحتضن الوافدين من الجزيرة الأندلسية، والباحثين عن الجو الأنسب لممارسة نشاطهم العلمي.

⁴³ - نفسه- ص.ص. 427-450.